تجربة في توظيف الدراما في التعليم

الأطفال العراقيون يستطيعون التحدُّث عن أنفسهم

تاغ ماكنتغارت

رحلة لا بد منها

إن تخطيط سلسلة من الدروس يشبه تخطيط رحلة استكشافية. وسواء أكانت المنطقة المستهدفة معروفة أم غير معروفة، فإن الرحلة لم تقم بها هذه المجموعة من قبل تحت هذه الشروط بالذات، وفي هذا الوقت بالتحديد. ففي بعض الأحيان يمكن أن تتيسّر الرحلة عن طريق إلمام ميسّر الرحلة/معلم الدراما ومعرفته بالمنطقة. فالمعرفة بالمنطقة وخبرة مجموعات سابقة بها يمنحان شكلاً ومعنىً لطريق مخطّط لها على خارطة محددة الأبعاد.

ولعل الثقة المكتسبة من واقع الاستكشافات الماضية، تسمح بخوض المخاطر وتشجع ميسّر الرحلة على فهم الخلافات بين هذه المجموعة ومجموعات سابقة لمعرفة إلى أين سيتوجه عندما يتحمل المسؤولية، حيث أن حقيبة ظهر أحد أفراد المجموعة تشكل عبئاً على أفراد المجموعة، وأن الجميع يحتاجون إلى متنفّس حتى وإن كانت المنطقة ليست مكاناً جيداً للتوقف فيه، وأن ثمة مشهداً أفضل بكثير يقع على بعد مئات الأمتار.

أحياناً تُقدّم الرحلة نفسها على نحو لا يمكن اجتنابه، وعليه يصبح من غير المعلوم لأي شخص أن إدارة الظهر لهذا التحدي يتجاوز في خطورته محاولة التصدي له. ويشبه هذا الوضع قيام فريق من المتسلقين بتسلق قمة جبل سنودون (إلى الشمال الغربي من ويلز) في وقت يكون فيه جميع المتسابقين مسكونين بهاجس الحاجة لتسلّق قمة جبل إفرست. وهنا لا ينصب تركيزهم على التسلق الذي يقومون به، فيتحول همهم الحالي إلى كابوس.

ومما يضفي على هذه الرحلة الضرورية بعداً جديداً هو نوع التغير الجوي الهائل الذي يضطر حتى الشخص الملم بحقائق الأمور إلى استخدام اتجاه جديد (كأن تغطي غيمة سفح جبل معروف ومجرّب).

إن تخطيط الرحلة يجب التطرق إليه بطريقة جديدة كلياً، فليس من المجدي التعلّق بفكرة تنم عن تفكير متقدم، في وقت نعلم فيه يومياً –على وجه التقريب– حجم المساحة التي سيغطيها الفريق على الأرض وأين سيقف ويأكل وينام. التخطيط إذن يجب أن يكون وليد اللحظة ومرناً وسريع الاستجابة لظروف المنطقة والطقس وأوضاع المستكشفين (بما في ذلك ميسّر الرحلة). كما أن القلق والصدمات والخوف وتفادي المخاطر ... كل ذلك يجب أن يُؤخذ بعين الاعتبار عندما يكافح هؤلاء المعنيون لشق طريقهم عبر هذه المنطقة المخيفة والصعبة والخطرة والمهمة أيضاً، لا بهدف النجاة فحسب، بل ليزدادوا بأساً وجرأة كنتيجة لهذه المغامرة المشتركة.

سوف أقول إن التعليم خلال حرب الخليج كان كتلك المرحلة الضرورية التي لا مفرّ منها. وقد يبدو إثر قراءة برنامج الدروس أن الخطة عامة، وأن تطوير البرنامج قد يأخذ بضعة اتجاهات غريبة، غير أن هذه الفترة بالذات كان لها أثر واضح عليّ، وأظهرت لي أننا لم نكن في وضع يضطرنا إلى فرض آرائنا المسبقة على الطلاب الذين نعمل معهم، وإلا لكان تخطيطنا بحاجة إلى التمسك بشخصية لحظية ومرنة وسريعة الاستجابة، وليس فقط تلك التي تنشأ وقت الحرب.

ولعل ما آمل أن أتوسع فيه في هذا المقام ليس الكثير من التكتيكات لتعليم موضوعات صعبة أو حساسة (تظلّ مجرد إشارات أو تلميحات أقل ملاءمة للتدريس عن حرب جارية)، وإنما محاولة استحضار مفاهيمي الجديدة إزاء موقف استراتيجي بالنسبة للتعليم والتعلم عموماً.

تمهيد الطريق

المدرسة: هذه مدرسة تضم حوالي ٦٠٠ تلميذ، وتقع في ضواحي مدينة برمنجهام، وهي عبارة عن مبنيين ضخمين (مزيج من الشقق والطوابق المرتفعة)، وتعود ملكيتهما في أوائل الستينيات إلى مجلس للإسكان.

على الصعيد الاجتماعي، يغلب على المدرسة البيض وأبناء الطبقة العاملة، وعدد صغير من الأطفال ذوي الأصول الأفروكاريبية والآسيوية والشرق أوسطية والصينية.

الصف:

(ويُرمزُ إليه ٧أ والذي يسمى حالياً في برمنجهام بالصف السابع) كان واحداً من خمسة صفوف متباينة القدرات في السنة الأولى للمدرسة الثانوية. وكان متوسط عمر الأطفال ١٢ سنة، ٢٥ منهم مسجلون (١٠ فتيات و١٥ صبياً)، ويتلقون درساً واحداً في الدراما أسبوعياً على مدار ساعة وعشر دقائق في أستوديو الدراما.

وفي وقت مبكر من شهر كانون الثاني، ناقشت مع رئيسة قسم الدراما المجالات التي حدّدتها المجموعة للعمل معي خلال الأسابيع الخمسة المقبلة قبل أن يلتقي بي أحد. وكانت الموضوعات كما يلي:

الحرب
المخبرون السرّيون
هنري الثامن
الطاعون

وأما برنامج العمل الذي وضعته للصف، فيمكن وصفه كما يلي:

مفاهيم عامة:

الإنسانية ⟷ الطبيعة
السيطرة ⟷ عدم السيطرة
خارج نطاق السيطرة
كوارث طبيعية ⟷ كوارث من صنع الإنسان
القيادة ⟷ قيادة غير ملائمة
غياب القيادة
علمي ⟷ حدسي (بدهي)
حقيقي ⟷ تخميني

أسئلة تعليمية محتملة:

كيف يستطيع البشر السيطرة على الطبيعة؟
ما هي طبيعة البشر؟
كيف يستطيع البشر السيطرة على طبيعتهم؟
ما هي القيادة التي يحتاجها البشر؟

مصادر ممكنة:

المدفع الإنساني، تأليف إدوارد بوند

التمثال الضخم، تأليف كلايف باركر – وكلتا المسرحيتين عن الحرب
رزمة نماذج – رواية لليافعين حول قرية إيام (Eyam) والطاعون.
ظلان قصيدة لأليشيا بارتنوي في البيت المدرسي الصغير، وبعض تجاربها كمعتقلة سياسية في الأرجنتين.
الموج تأليف مورت رول – رواية للشباب عن الفاشية.
صحيفة معاصرة/ مواد جغرافية ووطنية حول تشيرنوبل – زلزال أرميني – الحرب الوشيكة في الخليج.

لقد كنت محظوظة بالعمل في مدرسة كنت ألقى فيها دعماً كاملاً من رئيسة القسم المشرفة على هذا البرنامج في ظل وجود سلطة تعليمية لو أصدرت أياً من توجيهاتها إلى المدارس ربما لا تصل إلى المعلمين بالفعل. إنني أشعر بامتنان خاص إلى رئيسة القسم التي وثقت بي وبالتلاميذ عشية اندلاع الحرب في ذلك الوقت على الرغم من مخاوفها المفهومة على صف يتلقى تعليمه لأول مرة على يد شخص غريب.

الدرس الأول: ١٥ كانون الثاني ١٩٩١

كان ثمة هدفان لهذا الدرس:
١. استكشاف ما تعنيه الكوارث الطبيعية/ كوارث من صنع الإنسان لهم.
٢. التأمل في الحرب، إذا ما كان لديهم اهتمام بذلك وطرح السؤال التالي: **لماذا تندلع الحروب؟**

ولتحقيق الهدف الأول، استخدمتُ صفحات كبيرة من الورق لاستثارة أفكار الفتيان والفتيات لعله يكون في مقدروهم قراءة جميع أفكارنا بشكل مشترك من النظرة الأولى، وتوفير الظروف الملائمة لتلاميذ الصف، لربما يضيفون شيئاً ما من أفكارهم في مرحلة لاحقة من عملنا.

وأما بالنسبة إلى الهدف الثاني، فقد خطّطت لاستخدام دور جديد لليافعين، وهو دور يتطلب نوعاً محدداً من العمل يتجاوز الدور المخطط له في سياق ما – وفي هذه الحالة دور المخبرين السريين – للعمل مع معلم بدور متوفر في المسرحية يرون هم أنفسهم أنه ربما يساعد في عملية التحقيق. وكلتا مرحلتي التخطيط سارتا بشكل جيد، وقد سجلتُ من خلال تقييمي الملاحظات التالية:

العصف الذهني – بدا أنه يجتذب كل تلميذ، وحتى الأكثر سخرية بينهم كان لديهم الكثير مما يقولون (الجداول تبيّن ذلك).
- الفحص الجيد للايدز و"التلفزيون المتفجّر" لأي جدول ينتميان؟ (كارثة طبيعية أم إنسانية.
- الدور بالنسبة لهم وسؤال (لماذا تشتعل الحروب؟) أثارا فيهم النشاط.

وفي ضوء ذلك تبلورت بسرعة قائمة محتملة من المساعدين في التحقيق. والقادرون على المساعدة في التحقيق جاءوا على النحو التالي:

صدام حسين
هتلر
ونستون تشرشل
ستالين
جندي بريطاني عادي
جورج بوش
جون ميجر
مشارك في حرب فوكلاند
جنرال بريطاني
جنرال عراقي

وبقي صدام حسين الخيار الذي يحظى بالإجماع للبدء به.

دراما الصف برمته– فالمعلم يقوم بدور صدام حسين بعد مفاوضات حول تصميم مساحة ملائمة له (مدى قرب مقاعد المحققين من طاولة اللقاء ... الخ)
- تركيز جيد من جانب الفتيان الذين تستحوذ عليهم الدراما بوضوح (كثير من الوقفات القصيرة للتأمل بكل من الأسئلة والإجابات على حد سواء).
- عدد قليل من الفتيات نأين بأنفسهن جانباً على مضض وهن أقل انخراطاً بالعمل.
- وتبيّن الملاحظات أن اثنتين أو ثلاثاً من الإجابات تنم عن تفكير جيد، لكن ثمة (نعم) واضحة للاستمرار!

هذا الدرس يكشف عن تزامن المسرحية للأحداث الجارية بالنسبة لليافعين والمعلم، لذلك جاءت القرارات جيدة، وأظهر المشاركون براعة وكفاءة على الرغم من أن ذلك كان يجري خارج الزمن في النهاية وينعكس على مجرى الدرس بشكل كامل.

الدرس الثاني: ٢٢ كانون الثاني ١٩٩١

اثنان من أهداف هذا الدرس كانا على النحو التالي:
١. توفير مزيد من الأمان للصف في التصدي لسؤال (لماذا تشتعل الحروب؟) في ضوء اندلاع الحرب منذ الأسبوع الماضي، ومنح التلاميذ مساحة آمنة ليعبروا عن مدى الأثر الذي تركه اندلاع الحرب عليهم.
٢. تطوير تفكيرهم عبر دعوتهم لإعداد مواد للآخرين.

وكانت الفكرة بالنسبة إلى كلا الهدفين تكمن في إثارة صف بكامله للعمل الدرامي عبر إمكانية العمل في مجموعات صغيرة. فاليافعون يقومون بدورٍ معلمين رئيسيين في مؤتمر خاص لمدارس مدلاندس، ويقررون ما هو مهم بالنسبة إلى تلاميذهم عن الحرب. وسوف يُدعون لإعداد دروس، بحيث يظهر كل منهم في دور مزدوج، كأن يراقب أحدهم عمل الآخر كمعلمين رئيسين، لكن بشكل انتقادي نيابة عن "تلاميذهم". فالمعلم إذن يقوم بدور منظم/ ميسّر المؤتمر (سلطة وسيطة ومسؤولة عن تنظيمه)، لكن النفوذ يبقى في يد "المعلمين الرئيسين". وتضمنت الأوراق التي سجل عليها "المدرسون الرئيسيون" أفكارهم الأولى حول ما يحتاج اليافعون لمعرفته في مدرستهم الأمور التالية:

"أن يتعلموا في درس الجغرافيا أين توجد الأهداف الرئيسية وأين توجد القوات المتحالفة..."
"التعلم عن الحرب وعن الحياة وأشياء أخرى..."
"أن يتعلموا ما يجري في العالم..."
"أن يسألوا: لماذا بدأت الحرب بالفعل لكي نتعلم أكثر فأكثر عن حرب الخليج..."
"أن يستدعوا عسكرياً ويسألوه: كيف بدأت الحرب..."؟
"أن يأتوا بمسرحية درامية عن حرب الخليج ويجعلوا التلاميذ يعرفون بالفعل

ما الذي تدور حوله ويمثلوها على المسرح..." .
"أن يعلموا التلاميذ عن حرب الخليج ويخبروهم عن الخطر الذي سيداهمهم إذا اندلعت..." .
"أن يتبرعوا بالدم..." .
"أن يتبيّنوا لماذا اندلعت هذه الحرب، ولماذا تندلع حروب أخرى..." .
"أن يتعلموا المزيد عن العالم والحروب..." .
"وإذا ما تمّ قصف تلاميذي وأطفالي علينا أن نوقف الحرب ..." .

إيجاد الاتجاه

أصبحت مجالات الاستكشاف في كل أسبوع أكثر دقةً كنتيجة للتحوّلات في اهتمامات اليافعين والطريقة التي حاولتُ بها أن أُعطي شكلاً لهذه التغيرات من خلال الإطار الدرامي. وفي البداية كانت مجالات الاهتمام الخمسة الواسعة كما يلي:

١. أناس في هذه البلاد وفي بلدان أخرى أيضاً ممن هم أيضاً ضد الحرب.
٢. إفساح المجال للجنود كي يقولوا ما الذي يجري بالفعل.
٣. التدريب على استخدام أقنعة واقية من الغاز. (كان ذلك خطيراً جداً وعكس مخاوفهم الحقيقية من أن تصبح بريطانيا هدفاً لهجمات انتقامية).
٤. تحضيرات من أجل المدارس لربطها بالمستشفيات (مثال ذلك تقديم قاعات أو حجرات الألعاب الرياضية كمساحة إضافية للوقاية والرعاية عند الضرورة، بحيث يساعد الأطفال كمتطوعين في هذه المستشفيات المدنية).
٥. إحضار أولئك الذين يؤيدون الحرب ونظرائهم ممن يؤيدون السلام لعرض حججهم ذات الصلة.

ومع تطور "الدروس"، تمت مراقبتها فتعرضتُ للنقد بطرق عدة مختلفة بشكل عفوي في منتصف العمل، وبشكل رسمي عند الانتهاء من العمل كلياً، لذلك استطاع جميع "المدرسين الرئيسيين" تحقيق تقدم إلى أبعد الحدود. (كان ذلك بشكل عام مجال العمل الذي أحسست بالرضا إزاءه على الأقل. وكان يمّثل معياراً للدافعية جلبته غالبية المجموعات إلى عملها معظم الوقت، ولم يستطع أفرادها تحمّل فكرة التوقف عما كانوا يفعلونه وتحويل تركيزهم إلى عمل شخصي آخر).

وفي الأسبوع الثالث (٢٩ كانون الثاني)، عرضتُ رسالة دراما تلقيتها من مدرسة رئيسية حقيقية تعمل في مدرسة للصغار وسط لندن، تقول فيها إنها سمعت عن عمل التلاميذ، وتبحث عن مساعدتهم لتلاميذ الصف الرابع بوجه خاص. وفي هذه الجلسة أيضاً اتّحد الصف بالإجماع حول اقتراح كريستوفر الوارد في جدول العصف الذهني. "إئت بمسرحية درامية عن حرب الخليج، واجعل التلاميذ يعرفون بالفعل ما الذي تدور حوله ومثلوها على المسرح!" . وكنتيجة لذلك، شرع أعضاء المجموعات بالعمل كما لو أن أمامهم جمهوراً من المستمعين (٢٥ تلميذاً بسن ١٠ سنوات)، ما خلق لمعلمتهم الرئيسية مشكلة!

وفي الأسبوع الرابع (٥ شباط)، عرضتُ ستة أسئلة دراما من التلاميذ الحقيقيين (١٠ سنوات) أرسُلت لي عن طريق المعلمة الرئيسية في لندن (وتأكدتُ معها من تعبيراتهم عبر الهاتف). أربعة من هذه الأسئلة (التعبيرات) أخذ بها أفراد المجموعات الخمس (أحدها كان مطابقاً في تركيزه لمسرحيات الدراما الخاصة بهم). وجاءت هذه التعبيرات كما يلي:

١. بعض أسئلة تلاميذ الصف السادس:
- كيف بدأت الحرب، (كيف تبدأ الحروب؟)
- كيف يمكن إيقاف الحرب؟ (كيف أوقفت الحروب؟)
- ما الذي يمكن أن نتعلمه من الحروب الأخرى في التاريخ؟

٢. بعض أطفال الصف السادس يريدون معرفة ماذا تشبه الحياة بالنسبة إلى الأطفال العراقيين الآن وكيف يشعرون؟
٣. يعرف أطفال الصف السادس أن بعض الناس ضد الحرب في كل أنحاء العالم، وهم يريدون معرفة المزيد عن ذلك.
٤. الأولاد في الصف السادس يتغيرون بين كونهم عدائيين جداً للحرب، وخائفين جداً من قصفهم أو مهاجمتهم بأسلحة نووية –هل تستطيع مسرحيتك الدرامية المساعدة في معالجة ذلك؟

(السؤالان اللذان لم يتم اختيارهما في هذا السياق يتعلقان بالممارسة الحياتية بعد النجاة والأضرار العقلية والجسمانية للناس بشكل مباشر وغير مباشر كنتيجة للحرب).

أما الأسبوع الخامس (١٢ شباط)، فتم تكريسه فعلياً لتصوير مسرحيات الدراما عبر الفيديو وإرسالها إلى تلاميذ المعلمة الحقيقية في لندن، وعمرهم ١٠ سنوات. غير أن برمنجهام غمرها الثلج بارتفاع أربعة أقدام نهاية الأسبوع، ما تسبب بحضور تسعة تلاميذ من الصف فقط إلى المدرسة. واصلنا التصوير بالفيديو، لكن أفراد المجموعات كانوا غير راضين عن عملهم وشعروا بالفعل أنه يحتاج إلى المزيد من التصنيف قبل أن يصبح جاهزاً لإرساله إلى تلاميذ لندن.

ومع ذلك، فمن وجهة النظر التعليمية، كانت ثمة لحظات خلال الأسابيع الخمسة بدت فيها سيماء الاستقامة والالتزام وتطوير الصف من الأمور الواضحة جداً.

لحظات على طول الطريق

لقد اخترتُ لحظتين للتوضيح:

الأولى: كانت خلال عمل مجموعة تضم جميع الفتيات اللواتي عملن بجد في برنامج على الهاتف عبر الراديو، واثنين من الملاحة كان عليهما أن يتعاملا مع عدد من المتصلين الموجعين والأقوياء والمتعصبين. ولتقديم البرنامج اختارت الفتيات من بين المواد التي كنت استخدمها أسبوعياً قضيتين عن الالتحاق بالتعليم في الغارديان (٢٢ و٢٩ كانون الثاني) وحرّرتا معاً من خلال قراءتهما المقدمة التالية:

"لا تزال حرب الخليج في أسبوعها الثالث، لكنها دخلت بالفعل الكتب القياسية كونها بدأت بأكبر هجوم جوي مكثف في التاريخ. وخلال الأربع وعشرين ساعة الأولى من القتال فقط، تم ضرب العراق بقوة تفجيرية كبرى تفوق تلك التي دمرت هيروشيما العام ١٩٤٥.

وقد أنهت بداية القتال خمسة أشهر ونصف من الدبلوماسية منذ أن غزا العراق الكويت في الثاني من شهر آب العام الماضي.

فالهجمات المسلحة التي هدفت إلى تحرير الكويت وحظيت بتفويض من الأمم المتحدة كانت بقيادة تحالف عسكري تهيمن عليه الولايات المتحدة. ومع أن إسرائيل لم تكن جزءاً من التحالف

الأصلي، فإنها كانت الدولة الأولى التي تعاني من القصف العراقي منذ غزو الكويت.

يصعب التمييز بين الحقيقة والخيال في زمن الحرب كما ظهر بعد اليوم الأول من القتال في الخليج. فبعد يوم من قصف التحالف المكثف للعراق، أعلن وزير الدفاع البريطاني أن ثلاث طائرات للتحالف تم إسقاطها بما في ذلك طائرة تورنيدو تابعة للقوة الجوية الملكية. وبعد بضع ساعات، زعمت الحكومة العراقية أن قواتها قد دمرت ٤٤ طائرة معادية.

ليس من السهل أن نعرف أياً من هذه القصص كان صحيحاً، فالمعلومات عن تقدم الحرب تخضع لمراقبة مشددة من جانب طرفي الصراع، ويُظهر التاريخ أنه من المألوف بالنسبة إلى حكومات في حالة حرب أن تحجب المعلومات أو تروي حتى الأكاذيب كوسيلة لتضليل العدو أو شعوبها.

والآن ننتقل إلى فيكي وخطوط هاتفنا.... " .

أما النموذج الثاني (اللحظة الثانية)، فجاء من مجموعة جميع الفتيان الذين تتكفل مسرحيتهم الدرامية برواية قصة عن تعرّض مدرسة عراقية لهجوم أسفر عن مقتل طفلين، ونُقل الباقي إلى ملجأ تحت الأرض. ويتحدث المشهد الأخير عن أطفال ناجين من القصف أجرى معهم مقابلات فتى مراسل (هذا الدور لعبه الطفل المسلم الوحيد في الصف) حول تجاربهم وأفكارهم بخصوص الحرب.

وفي نهاية المقابلات يدير الفتى وجهه إلى الكاميرا ويقول:
"إذن أنتم ترون، الأطفال العراقيون يستطيعون التحدث عن أنفسهم ولديهم الكثير مما يقولون " .

اختبار العالم

الأطفال يستطيعون التحدث عن أنفسهم ولديهم الكثير مما يقولون. ويمكّنهم الشكل الفني للدراما من قول ما يختلج في نفوسهم، والأهم من ذلك أنه ربما يمكّنهم من معرفة ما قالوه. لدي مجموعة من الانتقادات لعملي كمعلمة وفنانة وتحديداً في هذه المجموعة من الجلسات، وأغلبها يتمحور حول الطريقة التي بها غالباً ما أجد نفسي متمركزاً خلف المكان الذي يختاره اليافعون لأنفسهم، وهم يتطلعون إلينا كمعلمين لعلنا نجعلهم قادرين على الشروع بتلك الرحلة ونصحهم بشكل منتج.

إن الجلسات مع الصف السابع لا يزال لها صدى خاص في نفسي؛ لأن التعليم والتعلم كانا لنا جميعاً في زمان ومكان حقيقيين، ونحن نختبر العالم الحقيقي الذي تجلّى أمامنا دون أن ننأى بأنفسنا عنه، أو نتظاهر بأنه لم يكن الشيء الأسمى في عقولنا ومشاعرنا.

وقد أثارت الأسئلة الموجهة لي على المدى البعيد قلقاً: كيف يكون بمقدور تلك " الخصوصية " أن تصبح هي القاعدة وليس الاستثناء في التعليم والتعلم. إن الحرب ضد الجيل الذي يمثل مستقبل جنسنا البشري تستمر في بريطانيا وبغداد أيضاً وتستمر ضد الأطفال الذين نعلمهم وضد أولئك الذين يموتون في العراق. لقد كتب تشارلز غلاس الكلام التالي في مجلة الإندبندنت في الثلاثين من شهر تشرين الثاني العام ١٩٩١ :

" في ستة أشهر من الحصار العالمي توفي ٥٨٨ طفلاً في مقاطعة ديالا لانعدام وجود الدواء، وتوفي أيضاً ٣٤٥ طفلاً في بابل. بالطبع، هذه إحصائيات حكومية، والحكومة ربما تكذب، وهي غالباً ما تكذب كما فعلت في الأيام التي اختار أعضاء مجلس الشيوخ الأميركي أن يصدقوها. فبعد ساعات قليلة في مستشفى صدام المركزي التعليمي للأطفال، صدَّقتُ بأن الأطفال يموتون لأنني رأيتهم. وقد اعترف مدير المستشفى د. قاسم إسماعيل بوجود أربع حالات شلل أطفال. وهم أول ضحايا مرض تم القضاء عليه واستئصاله قبل عشر سنوات. وهو يُعالج لأول مرة منذ عشرين عاماً أطفالاً يعانون من مرض الكوليرا. كما أن هناك أطفالاً مصابين بمرض البول السكري؛ لأن مادة الأنسولين غير متوفرة.

وقال د. إسماعيل الذي درس طب الأطفال (pediatrics) في لندن إن الأطفال تحت سن خمس سنوات كانوا يموتون بمعدلات غير مسبوقة (١٠٠ طفل من مجموع ١٠٠٠). وقبل غزو الكويت كان معدل وفيات الأطفال ٣٢ طفلاً فقط، وكان ذلك يُعتبر أحد المعدّلات الأقل في العالم الثالث.

ذلك العراق انكمش ليصبح دولة " عادية " من دول العالم الثالث، وبمستويات فقر وتخلف " عاديين " ليسا محل خلاف. ويعتقد الكثير من العراقيين أن هذه هي نية الولايات المتحدة راعية ما أسماه الرئيس بوش " النظام العالمي الجديد " .

وفي بغداد يرى الزائر مستقبل العالم الثالث " الناشئ " : متسولون، ماسحو الأحذية من الأطفال، لاجئون في المستقبل يتوسلون للحصول على فيزا، صور للدكتاتور في كل مكان. " الناس هنا يستحقون العناوين الرئيسية في عالمنا، ونحن لا نستمع إليهم. "

كثيرون من سكان مدينة كاردبورد (Cardboard) هم شباب بيوتهم مداخل للدكاكين، متسولون شباب في أواسط المدينة، ماسحو زجاج السيارات على الإشارات الضوئية، موتى الانتحار والجرعات المفرطة من المخدرات وسوء التغذية والإيدز ... كل هؤلاء كانوا تلاميذنا قبل سنتين أو سنة أو حتى بضعة أشهر خلت. هؤلاء الشباب في الطرف المستقبل لشكل الحرب البريطانية على الشباب وعلى مستقبلهم أيضاً!

كل درس نعلمه ونتعلم منه هو لحظة في شن تلك الحرب. ففي أي طرف نحن؟

الهوامش:

* ننشر في " رؤى تربوية " هذه المقالة، وهي واحدة من سلسلة ترجمات نظرية وتطبيقية في مجال توظيف الدراما التي ستصدر في كتاب بداية العام ٢٠٠٦ عن مركز القطّان للبحث والتطوير التربوي، وقد حصلت " رؤى تربوية " على إذن بالترجمة من المجلة والكاتبة.

* تاغ ماكنتغارت (Tag McEntegart)، مخرجة فنية من بلغراد. وهذه المقالة نشرت بالإنجليزية في مجلة (Scypt)، العدد ٢٤– خريف ١٩٩٢، تحت عنوان (Iraqi Children Can Speak for Themselves).